

شَهَادَةُ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْجَوَارِحِ عَلَى الْخَلْقِ ٣٠ ذُو الْحِجَّةِ ١٤٤٣ هـ

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمٌ مَشْهُودٌ، فِيهِ مَشَاهِدٌ مُؤَثَّرَةٌ، وَأَحْوَالٌ مُبْكِيَةٌ، وَعَرَصَاتٌ عَوِيصَةٌ، وَمَوَاقِفٌ شَدِيدَةٌ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ يَوْمٌ طَوِيلٌ مَشْهُودٌ، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مِنْ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ الْعَصِيبَةِ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ شَهَادَةُ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ عَلَى صَاحِبِهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. قَالَ الْعَلَامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي بَيَانِ وَصْفِهِمُ الْفَطِيحِ فِي دَارِ الشَّقَاءِ: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ بِأَنْ نَجْعَلَهُمْ خُرْسًا فَلَا يَتَكَلَّمُونَ، فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى انْكَارِ مَا عَمِلُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ. ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَي: تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَعْضَاؤُهُمْ بِمَا عَمِلُوهُ، وَيُنْطِقُهَا الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ بِأَنْ نُدْهَبَ أَبْصَارَهُمْ، كَمَا طَمَسْنَا عَلَى نُطْقِهِمْ. ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أَي: فَبَادَرُوا إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ الطَّرِيقُ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى الْجَنَّةِ، ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ وَقَدْ طَمَسَتْ أَبْصَارُهُمْ.

- وَفِي مَوْقِفٍ آخَرَ يَشْهَدُ اللِّسَانُ بِمَا قَالَهُ، مِنْ كَذِبٍ وَغِيبَةٍ وَنَمِيمَةٍ وَزُورٍ وَبُهْتَانٍ وَافْتِرَاءٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجْرِنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: يَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيَقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ

يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكِنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكَنَّ كُنْتُ أَنَاضِلُّ»، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا:
 ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِيَجْلُو دِهِمَ
 لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ
 تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا
 تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى
 لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾.

إِنَّهُ لِيَوْمٍ عَصِيبٌ، حِينَ يَرَى الْعَبْدُ نَفْسَهُ فِي أَرْضِ الْمَحْشَرِ، وَيَتَذَكَّرُ ذُنُوبَهُ الَّتِي عَمَلَهَا فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ
 يُفَاجَأُ بِأَنَّ جَوَارِحَهُ تَشْهَدُ عَلَيْهِ بِمَا عَمِلَ، فَالْعَيْنُ تَشْهَدُ بِمَا أَبْصَرَتْ، وَالْأُذُنُ تَشْهَدُ بِمَا سَمِعَتْ، وَالْفَمُّ
 يَشْهَدُ بِمَا أَكَلَ، وَالْيَدُ تَشْهَدُ بِمَا بَطَّشَتْ، وَالرَّجُلُ تَشْهَدُ بِمَا مَشَتْ، وَالْفَرْجُ يَشْهَدُ أَيْنَ وُضِعَ.

وَالْحِكْمَةُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - مِنْ شَهَادَةِ الْأَعْضَاءِ عَلَى صَاحِبِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبَعْتُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي
 يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَيْهِ فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ
 بِعَمَلِهِ؛ وَذَلِكَ لِيُعَذِّرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ». فَهَذَا فِيهِ بَيَانُ كَمَالِ
 عَدْلِ اللَّهِ، وَإِعْذَارِهِ لِلْعَالَمِينَ؛ لِذَا أَقَامَ عَلَيْهِمُ الشُّهُودَ، وَنَوْعَ وَعَدَدَ تِلْكَ الشُّهُودِ، وَكَثْرَتَهَا؛ حَتَّىٰ تَقْطَعَ
 الْحُجْبَ، وَتَقَرَّ الْجُمُوعُ بِعَدْلِ اللَّهِ الْمُطْلَقِ، وَإِلَّا فَاللَّهُ تَعَالَىٰ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِأَسْرَارِهِمْ وَمَا يَخْفَىٰ مِنْ
 أَعْمَالِهِمْ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾. وَالشُّهُودُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَثْرًا، وَمُتَعَدِّدُونَ،
 وَمُتَنَوِّعُونَ.

عِبَادَ اللَّهِ: وَكَمَا أَنَّ الْجَوَارِحَ شَاهِدَةٌ عَلَىٰ أَعْمَالِ الْخَلْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَكَذَلِكَ الْأَيَّامُ وَالْأَعْمَارُ يُسْأَلُ عَنْهَا الْعَبْدُ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ. أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، عَنْ أَبِي بَرزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ».

فِيَا مَنْ يُمْرُّ عَلَيْهِ يَوْمٌ بَعْدَ يَوْمٍ، وَسَنَةٌ بَعْدَ سَنَةٍ، بَادِرِ التَّوْبَةَ وَاحْذِرِ التَّسْوِيفَ، وَأَصْلِحْ مِنْ قَلْبِكَ مَا فَسَدَ، فَقَدْ أَزِفَ الرَّحِيلُ، وَالْعُمُرُ أَمَانَةٌ، سَيُسْأَلُ عَنْهُ الْمَرْءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَلْيَحَاسِبْ كُلُّ مَنَا نَفْسَهُ، فَقَدْ سَعِدَ مَنْ لَاحَظَهَا وَحَاسَبَهَا، وَفَازَ مَنْ تَابَعَهَا وَعَاتَبَهَا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: وَالْأَرْضُ سَوْفَ تَكُونُ شَاهِدَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ أَذْنَبَ عَلَيْهَا. قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾. سَأَقُ ابْنُ كَثِيرٍ بِسَنَدِهِ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قَالَ: قَالَ لَهَا رَبُّهَا: قُولِي، فَقَالَتْ. اهْدِ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾. أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: خَلَّتِ الْبِقَاعُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ، فَأَرَادَ بَنُو سَلَمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّهُ بَلَعَنِي أَنْكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ»، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ، فَقَالَ: «يَا بَنِي سَلَمَةَ، دِيَارُكُمْ تُكْتَبُ أَثَارُكُمْ، دِيَارُكُمْ تُكْتَبُ أَثَارُكُمْ». قَالَ الْحَافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شَرْحِهِ لِصَحِيحِ مُسْلِمٍ»: «أَيُّ خُطَاكُمْ الْكَثِيرَةُ إِلَى الْمَسْجِدِ».

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ الْأَنْصَارِيِّ ثُمَّ الْمَازِنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَهُ: إِنِّي أَرَاكَ تُحِبُّ الْغَنَمَ وَالْبَادِيَةَ، فَإِذَا كُنْتَ فِي غَنَمِكَ، أَوْ بَادِيَتِكَ، فَأَذْنَتَ بِالصَّلَاةِ فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ، فَإِنَّهُ: «لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جِنَّ وَلَا إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ، إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَتَأَمَّلْ - أَخِي الْمُسْلِمَ - عَظِيمَ هَذَا الْمَوْقِفِ، عِنْدَمَا تَشْهَدُ الْأَرْضُ بِكُلِّ مَا عَمِلَ عَلَيْهَا مِنْ مَعْصِيَةٍ، كَرِئًا، وَسَرِقَةٍ، وَكَذِبٍ وَغِنَاءٍ وَاجْتِمَاعَاتٍ عَلَى لَهْوٍ وَفُجُورٍ، وَغَيْرِهَا، كَمَا تَشْهَدُ بِمَا عَمِلَ عَلَيْهَا مِنْ خَيْرٍ كَصَلَاةٍ وَصِيَامٍ، وَطَوَافٍ وَسَعْيٍ، وَزِيَارَاتٍ فِي اللَّهِ وَصِلَةِ رَحِمٍ، وَغَيْرِهَا، هَذَا وَاللَّهُ مِمَّا يَدْعُو الْمُسْلِمَ إِلَى إِحْسَانِ الْعَمَلِ وَتَقْوَى اللَّهِ، وَالِاسْتِعْدَادِ لِيَوْمِ الْمَعَادِ.

عِبَادَ اللَّهِ: فَلْنَحَاسِبْ أَنْفُسَنَا، مَا دُمْنَا فِي دَارِ الْمُهْلَةِ، وَمَادَامَ فِي الْعُمْرِ فُسْحَةٌ، وَفِي الْوَقْتِ مُتَّسِعٌ، وَقَدْ سَجَّلَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ أَقْوَالَ عَظِيمَةً. قَالَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «سِيرِ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ»: وَأَضُرُّ مَا عَلَيْهِ الْإِهْمَالُ، وَتَرَكَ الْمُحَاسَبَةَ، وَالِاسْتِرْسَالَ، وَتَسْهِيلَ الْأُمُورِ، وَتَمَشُّيْتَهَا؛ فَإِنَّ هَذَا يُؤْوِلُ بِهِ إِلَى الْهَلَاكِ، وَهَذِهِ حَالُ أَهْلِ الْغُرُورِ: يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ عَنِ الْعَوَاقِبِ، وَيُمَشِّي الْحَالَ، وَيَتَّكِلُ عَلَى الْعَفْوِ، فَيُهْمِلُ مُحَاسَبَةَ نَفْسِهِ، وَالنَّظَرَ فِي الْعَاقِبَةِ، وَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ سَهَّلَ عَلَيْهِ مُوَاقَعَةَ الذُّنُوبِ، وَأَنَسَ بِهَا، وَعَسَرَ عَلَيْهِ فِطَامُهَا، وَلَوْ حَضَرَهُ رُشْدُهُ لَعَلِمَ أَنَّ الْحِمِيَةَ أَسْهَلُ مِنَ الْفِطَامِ، وَتَرَكَ الْمَأْلُوفِ وَالْمُعْتَادِ. اهـ

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الدَّاءِ وَالِدَوَاءِ»: فَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَمْ مِنْ قَلْبٍ مَنكُوسٍ وَصَاحِبُهُ لَا يَشْعُرُ؟ وَقَلْبٍ مَمْسُوحٍ، وَقَلْبٍ مَخْسُوفٍ بِهِ؟ وَكَمْ مِنْ مَفْتُونٍ بِثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ؟ وَمَعْرُورٍ بِسِتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ؟ وَمُسْتَدْرَجٍ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ؟ وَكُلُّ هَذِهِ عُقُوبَاتٌ وَإِهَانَاتٌ، وَيَظُنُّ الْجَاهِلُ أَنَّهَا كَرَامَةٌ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «طَرِيقِ الْهَجْرَتَيْنِ وَبَابِ السَّعَادَتَيْنِ»: فَوَ أَسْفَاهُ وَوَحْسَرَتَاهُ، كَيْفَ يَنْقُضِي الزَّمَانَ وَيَنْفِدُ الْعُمْرَ وَالْقَلْبُ مَحْجُوبٌ - يَعْنِي عَنِ اللَّهِ، وَعَنِ الدَّارِ الْآخِرَةِ - مَا شَمَّ لِهَذَا رَائِحَةً، وَخَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا دَخَلَ إِلَيْهَا، وَمَا ذَاقَ أَطِيبَ مَا فِيهَا، بَلْ عَاشَ فِيهَا عَيْشَ الْبَهَائِمِ، وَانْتَقَلَ مِنْهَا انْتِقَالَ الْمَفَالِيسِ، فَكَانَتْ حَيَاتُهُ عَجْزًا، وَمَوْتُهُ كَمَدًا، وَمَعَادُهُ حَسْرَةً وَأَسْفًا.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «إِغَاثَةِ اللَّهْفَانِ مِنْ مَصَايِدِ الشَّيْطَانِ»: فَكَذَلِكَ النَّفْسُ: يُشَارِطُهَا أَوَّلًا عَلَى حِفْظِ الْجَوَارِحِ السَّبْعَةِ الَّتِي حِفْظُهَا هُوَ رَأْسُ الْمَالِ، وَالرَّبْحُ بَعْدَ ذَلِكَ. فَمَنْ لَيْسَ لَهُ رَأْسُ مَالٍ، فَكَيْفَ يَطْمَعُ فِي الرَّبْحِ؟ وَهَذِهِ الْجَوَارِحُ السَّبْعَةُ وَهِيَ: الْعَيْنُ، وَالْأُذُنُ، وَالْفَمُّ، وَاللِّسَانُ، وَالْفَرْجُ، وَالْيَدُ، وَالرَّجُلُ، هِيَ مَرَائِبُ الْعَطْبِ وَالنَّجَاةِ، فَمِنْهَا عَطْبٌ مَنْ عَطَبَ بِإِهْمَالِهَا، وَعَدَمِ حِفْظِهَا، وَنَجَا مَنْ نَجَا بِحِفْظِهَا وَمُرَاعَاتِهَا، فَحِفْظُهَا أَسَاسُ كُلِّ خَيْرٍ، وَإِهْمَالُهَا أَسَاسُ كُلِّ شَرٍّ... فَلْيَجْتَهِدْ فِي مُرَاقَبَتِهِ وَمُحَاسَبَتِهِ، وَلْيَحْذَرْ مِنْ إِهْمَالِهِ. وَيُعِينُهُ عَلَى هَذِهِ الْمُرَاقَبَةِ وَالْمُحَاسَبَةِ: مَعْرِفَتُهُ أَنَّهُ كَلَّمَا اجْتَهَدَ فِيهَا الْيَوْمَ اسْتَرَاحَ مِنْهَا غَدًا إِذَا صَارَ الْحِسَابُ إِلَى غَيْرِهِ، وَكَلَّمَا أَهْمَلَهَا الْيَوْمَ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحِسَابُ غَدًا.